إنهم يعيشون على هامش الحياة ، وهم الآن مهددون بأن يفقدوا الهامش ايضا . . تعودنا دائما أن نقرأ أخبارهم على سبيل الاستمتاع والتسلية . كأنهم قد خلقوا للترفيه عن سكان المدن والعواصم الكبرى !

قبائل الصحراء الشرقية من هامش الحياة إلى قلب الحياة

تصوير :
صبرى صلاح

حسن سليمان

ولكن حينما يتعرض ٣٠ ألف مواطن من قبائل الصحراء الشرقية للمخاطر . فالأمر إذن يجب ألا يزعج على سبيل المتعة والتسلية . فقد آن الأوان لنظر إلى المشكلة نجد واهتمام ! كيف نتنقل بهم من هامش الحياة إلى قلب الحياة ؟ !

بدأ سكان الصحراء الشرقية فى التماس مصادر أخرى للرزق . بدأوا ينتقلون من أماكنهم ، ويتصلون بقبائل العبابدة والبشارية الذين يعيشون على شريط ضيق على الحدود شمال أسوان ، ويتبادلون معهم التجارة .

وكانت الفكرة أن الصحراء الشرقية لاتحوى الا الرمال والهضاب والجبال والنادر من البشر . . ويبدو أن هذا الاعتقاد قد انتقل إلى معظم دول العالم . وأصبحت الصورة أن هذه المنطقة من الدنيا تكاد تخلو من الحياة تماما ، مما أدى ببعض الدول الغربية إلى التطلع إلى الصحراء الشرقية كمنطقة من أصلح المناطق فى العالم لالقاء بقايا ونفايات التجارب النووية فيها .

وإذا كان هذا التفكير فى حد ذاته تفكيرا خاطئا . ويمكن أن يشكل خطورة على مصر كلها . فهو أكثر خطورة الآن حينما اكتشفت الحياة فجأة أو بمعنى أصح أعيد اكتشاف الحياة فجأة على أرض الصحراء الشرقية !

وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد أهملهم لفترات طويلة فإن الظروف الحالية قد أعادتهم بقوة على سطح الحياة من جديد ليكون لهم الدور الرئيسى والهام فى إعادة صياغتها على أرض الصحراء .

لقد لعبت الصدفة فى حياة قبائل الصحراء الشرقية أكثر من دور . أهمها حينما أمت مصر بناء السد العالى . وغمرت المياه مساحات عظيمة من الأراضى وظهرت إلى الوجود بحيرة السد العالى .

منذ هذا التاريخ انقطع مورد رزق حيوى وخطير . وهو مورد الرزق الأساسى لدى قبائل الصحراء الشرقية . فقد كان اعتمادهم الأول على مايفيضه عليهم النيل فى أشهر الصيف من مياه يروون بها ظمأهم وتنبت لهم النباتات والأعشاب التى يعيشون عليها ويعيش حيواناتهم . كما انقطع مورد رزق آخر متمثل فى التبادل التجارى بين هذه القبائل واهالى النوبة الذين غمرت المياه بلادهم . تلك المبادلة التى كانت تتم فى أشهر الشتاء . ونتيجة لهذا التحول الخطير وجدت القبائل نفسها متقوقعة حول عدد ضئيل جدا من الآبار لاتكاد تعد على أصابع اليد الواحدة فى صحراء شاسعة طولها ٣٠٠ كيلو متر تمتد من أسوان إلى السودان . وكان من الطبيعى أن تنشب المعارك على المياه بين القبائل والعائلات وعلى النباتات القليلة التى تنمو فى الصحراء . وكان من الطبيعى أيضا أن تظهر الجريمة بشكل ملحوظ فى هذه المجتمعات المسالمة . كما ارتفعت بينهم نسبة الوفيات ارتفاعا شديدا فى السنوات الأخيرة . . وحتى الآن ونتيجة لعزلتهم الشديدة فهم لايستطيعون تخيل ماحدث . وبالرغم من اتصالهم بالتوبين وبعض القبائل القريبة نسبيا من المدينة كالعبابدة والبشارية فهم يتصورون أن هذه المياه التى غمرت الأراضى مكونة بحيرة السد العالى هى مجرد سيول سيأتى عليها وقت لتجف ويعود حياتهم إلى سيرتها الأولى .

بدأ سكان الصحراء الشرقية فى التماس مصادر أخرى للرزق . . بدأوا ينتقلون من أماكنهم ويتصلون بقبائل العبابدة والبشارية الذين يعيشون على شريط ضيق على الحدود شمال أسوان وتبادلوا معهم التجارة . والمقايضة من جمال ومواعز من القبائل مقابل سكر وشاى ومواد تموينية مثل الدقيق وغيره من جانب العبابدة والبشارية ، كذلك قاموا بالتبادل [illegible] مع قبائل الحاما دوراب والمالكاب فى سلع مشابهه . ولكن هذه المبادلات التجارية تتم فى إطار محدود جدا . أو بمعنى أصح فهى تجارة لاتسمن ولاتغنى عن جوع . ومازالت هذه القبائل تتعرض للموت جوعا حتى إنهم قاموا بعملية تحديد نسل حيواناتهم ومواشيهم عن طريق عزل الذكور عن الإناث . . ومادام الموت هو المصير المنتظر لهذه الحيوانات فلا داعى إذن لأن تأتى وتزاحمهم وتتقاسم معهم طعامهم الذى يكاد يكون فى أغلب الأحيان نبات الأرض وشرابهم من مياه الآبار المحدودة .

وإذا كان بناء السد العالى والبحيرة الناتجة منه يشكل صدفة سيئة فى حياة بدو الصحراء الشرقية . إذ نتج عنه الإضرار بمصادر الرزق الأساسية . فهناك صدفة أخرى ولكنها سعيدة فى حياتهم إذ قامت الباحثة المصرية الشابة شهيرة فوزى بأول غزو للصحراء الشرقية وعمل دراسة كاملة عن الحياة فيها نالت عنها درجة الماجستير من الجامعة الأمريكية . وكان موضوع رسالتها

التغيرات البيئية وآثارها على تدهور الحياة الاقتصادية والاجتماعية لقبائل الصحراء الشرقية وبحيرة السد العالى .

وبناء على هذه الدراسة اهتم المسئولون عن التعمير وبناء المجتمعات الجديدة بمشكلة الصحراء والحياة فيها ، فقد تقدمت شهيرة فوزى ببحثها فى فبراير ١٩٧٨ وفى نهاية العام نفسه ظهر إلى الوجود أول مشروع لتوطين أهالى المنطقة من بدو ونوبيين وصيادين ، وخلق مجتمع جديد مركزه وادى العلاق الذى يتوسط المنطقة بين أسوان والسودان .

وقد نشرت أكتوبر فى عدد سابق لها فى العام الماضى بعض التفاصيل عن أسباب اختيار وادى العلاق وعن المشروع المزمع اقامته والجدوى الاقتصادية منه .

ويبدو أن الباحثة شهيرة فوزى لم تكتف بإثارة قضية بدو الصحراء الشرقية فى بحثها فقط . . ويبدو ايضا أنها لم تكتف بتبنى المسئولين للقضية ، ولكنها استمرت فى البحث والدراسة ومتابعة خطوات تنفيذ المشروع المقرر خطوة خطوة ، وأسفرت هذه الدراسة عن عدة حقائق هامة وخطيرة ضمنتها بحثها الجديد . .

تقول شهيرة : إن التركيز المادى فقط فى دراسة أثر الجدوى الاقتصادية للمشروع سوف يسبب ضياع حقوق السكان الأصليين للمنطقة ، وبالتالى يضيع منا الهدف ونحن نسعى وراء الوسيلة ، وتعنى آخر أنه حدث خلط لدى القائمين على المشروع بين الهدف والوسيلة . . فالهدف كما تصوره هو تنمية المنطقة اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا وخلق مجتمع جديد حول البحيرة متآلف ومتجانس بحيث يعمل على استغلال ثروات مصر الموجودة فى المنطقة من زراعة وأسماك ومحاجر رخام وثروة حيوانية وغيرها .

هذا هو الهدف . . ولكن ما الوسيلة ؟ هنا نقطة الخلاف أو نقطة الخلط . مثلا جاء فى المشروع بناء ٣٠ منطقة جديدة لإيواء سكان المنطقة . وسكان المنطقة من ثلاث فئات : البدو . والنوبيين . والصيادين . . فهل من المعقول أن يوضع نمط واحد من المساكن لسكن كل هذه الفئات ؟ هذا مستحيل . وحتى أدلل على كلامى أقول : إن بدو الصحراء الشرقية تعيش العائلة منهم فى خيمة تسمى « البرش » وهى خيمة صغيرة ارتفاعها بسيط عن الأرض بحيث ينحنى الرجل حين يدخلها . هذه هى حياتهم وهذا هو مسكنهم الذى اعتادوا عليه .

وجاء احد المهندسين وصمم لهم بعض المنازل فى وادى الحريت وحاول أن يستنهم من « البرش » المسكن الملائم لهم ، وتم البناء من الطوب والأسمنت ، فماذا كانت النتيجة ؟ جاءت المبانى على شكل الخيمات (المدافن) ولم يتحمل البدوى حرارتها فى النهار ونزع الشبابيك الخشبية وأحرقها واستعملها كوسيلة تدفئة فى ليالى الشتاء الباردة ، وتعلق شهيرة : إذن فمن الصعب جدا أن يقوم مشروع على الناحية المادية فقط دون النظر إلى جوانب اخرى كالجوانب الاجتماعية والمعيشية والبيئية التى تشكل حياة الناس .

مابين ستة آلاف وسبعة آلاف جنيه تكلف بناء بيت النوبى الذى عاد إلى موطنه القديم ، واستوطن حول بحيرة السد ليكون نواة لمجتمع جديد فى المنطقة ، ومن الطريف والظريف جدا ألا نجد فى بيت المزارع حظيرة للحيوانات والمواشى . فالمهندس الذى صممه لم يضع ذلك فى الحسبان ، كذلك لم يراع درجة الحرارة فى المنطقة ، فالبناء من الأسمنت المسلح والطوب الأحمر ، وكان من نتيجة ذلك أن اختنق بعض أطفال النوبيين وماتوا من شدة الحرارة . والغريب أن العمل فى الـ« ١٠ » مازال مستمرا . بالرغم من أن النوبيين تقدموا للمسئولين بجهاز تنمية بحيرة السد العالى وعرضوا أن يتسلموا نصف ما يتكلفه البناء ويقوموا هم ببناء المساكن الملائمة لهم من الطين على طريقتهم ، ولكنهم قوبلوا بالرفض واستمر البناء بالطريقة الخاطئة مما أدى إلى عدم استطاعة نقل الماشية كبيرة الحجم كالبقر والجاموس من موطن التهجير (كوم امبو) إلى الموطن الجديد ، فضلا عن عدم تحمل الحرارة داخل المنازل خاصة بالنسبة للأطفال . لذلك هجروا المنازل وبدأوا يشيدون منازل خاصة بهم على نفقتهم الخاصة .

والمهندس حسن فتحى يعلق على هذا الموضوع ، يقول : إن المهندس الذى تسبب فى قتل أطفال النوبة عن طريق الخطأ فى المرة السابقة ، سيقتلهم هذه المرة عمدا ومع سبق الإصرار ! !

الدخول لمنطقة البحيرة بتصريح . . والخروج منها ايضا بتصريح ، وقد يكون هذا الإجراء أمرا طبيعيا للأغراب عن المنطقة أو الزائرين لها ، وقد يكون السبب دواعى الأمن أو غيرها . ولكن لماذا تصريح الدخول والخروج بالنسبة للعاملين فيها ؟ والقصد بذلك الصيادين . فهناك أكثر من ثمانية آلاف صياد من قبائل الصعيدة (قنا وسوهاج والأقصر واسوان) يجدون الصيد فى بحيرة السد . مجتمع كله من الرجال . . فالزوجات فى البلاد ، وجاء الرجال هنا للعمل . . ولمدة أربع أو خمس سنوات لايرى الرجل زوجته أو أولاده . والسبب التصاريح .

والتصاريح فى ايدى كبار « المعلمين » . .

الذين يحتكرون جهود الصيادين ويقيدونهم دائما بالديون حتى لايهجروا العمل . ومادام الصياد مدينا لصاحب العمل فليس من حقه طلب تصريح . كل حقوقه أن ينتقل من العمل مع احد المعلمين إلى معلم اخر حيث يسرع الأخير بتكبيله بديون جديدة ، وهكذا يصير الصياد بلا زوجة ولا مأوى ، أيضا فهو مضطر للمبيت فى قوارب الصيد حتى لا تفتك به الحشرات السامة على البر ، وتقول شهيرة : إن هناك تعليمات مشددة بخصوص الغاء هذه التصاريح ولكنها للأسف لم تنفذ حتى الآن ، ومازال الصيادون يعانون من البحيرة أمامهم والمعلمين وراءهم ! !

وتختم الباحثة شهيرة فوزى كلامها قائلة : هذه المشاكل على سبيل المثال لا الحصر ، فهناك العديد من الظروف الاجتماعية الأخرى التى يجب مراعاتها عند التفكير فى بناء مجتمعات ومستوطنات جديدة ، ومحاولة إصلاح النوعية المادية والاجتماعية لتنمية الإنسان حتى لا تنتج عن مثل هذه المشروعات نتائج عكسية على الخط المستقيم ، وتجدد الثروات المأمول استخراجها على يد هذا المجتمع الجديد فى المشاكل والمنازعات القبلية بين قبائل المنطقة ، والمطلوب عدم البدء فى تنفيذ أى مشروعات عمرانية للمنطقة دون الدراسة المستفيضة لنوعية الانسان وحالته الاقتصادية والاجتماعية وقدرته على التأقلم على الحياة حتى لا تبدد ثروات ويذهب معها الجهد المبذول دون نتيجة تذكر .

● ● ●

واخيرا . . كنوز مصر المنسية . . الاسم الذى اطلقته « أكتوبر » على الثروات الموجودة فى منطقة الصحراء الشرقية (حول بحيرة السد العالى . . مساحات شاسعة من الرخام . . اراضى صالحة للزراعة . . ثروة حيوانية . . نباتات طبية نادرة . . ثروة سمكية .

هذه الكنوز فى حاجة إلى اكتشاف واستخراج واستغلال . . وحتى يتم ذلك بأيدى المجتمع الجديد . . مجتمع القبائل والصعايدة والنوبيين ، يجب أن تصقل هذه الأيدى وتدرب وتكتسب المهارة والخبرة ، ولكن قبل كل ذلك يجب أن يراعى أى مشروع يقام النواحى المعيشية والبيئية والاجتماعية لهذه المجتمعات قبل أن نفكر فى النواحى المادية .

هنا . . وهنا فقط نستطيع أن نقول إن هؤلاء الناس انتقلوا من هامش الحياة إلى قلب الحياة ■

قبائل العابدة والبشارية نتيجة عزلتهم الشديدة فهم لايستطيعون تخيل ماحدث فى العالم